۱۶۵۱۷

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ذوالحجه ۱۳۹۶
شماره	۱۰ سال ۴۸
شماره مسلسل	
محل نشر	قاهره
زبان	عربی
نویسنده	ابوالاعلی المودودی
تعداد صفحات	۱۵۸۹-۱۵۸۰
موضوع سرفصلها	التسامح فی الاسلام
کیفیت	
ملاحظات	

التسامح فى الإسلام

لسماحة العلامة أبى الأعلى المودودى

اذا كان لديك شىء واحد يقول عنه رجل انه أبيض ، والثانى انه أسود والثالث انه أخضر ، والرابع انه أصفر ، فليس من الممكن لك أن تصدقهم جميعا وكذلك اذا كان رجل يمدح فعلا من الأفعال ويأمر به ، والثانى يذمه وينهى عنه فمن المحال أن يكون كلا الرجلين صحيح الرأى صادق الحكم على ما بينهما من خلاف واضح بين وان كل من يصدق بمثل هذه الأقوال المتضاربة ويقول بصحة مثل هذه الأحكام المتعارضة جميعا ، فهو اما يريد أن يسترضى الناس جميعهم ، أو أنه يبدى رأيه فى الأمور بدون أن يفكر فيها وبدون أن يجيل فيها النظر ويعيرها ما يقتضى الحكم عليها من الجد والاهتمام . ولا يمكن أن يخلو أمره من احدى هاتين الحالتين ، وكلتاهما متنافية مع العقل والصدق الصريح ولا يليق بمن يحب العقل أن يصدق عدة رجال فى آرائهم المتعارضة لأى سبب من الأسباب .

قد يظن الناس أن تصديقهم لمختلف الأفراد فى آرائهم وأفكارهم المتعارضة المتضاربة هو «التسامح» مع أن الحقيقة أنه ليس بالتسامح ، بل هو نوع من أشنع أنواع النفاق ، لأن التسامح معناه أن تتحمل عقائد غيرنا وأعمالهم مع كونها باطلة فى نظرنا ، ولا نطعن فيهم بما يؤلمهم رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم ، ولا نلجأ الى وسائل الجبر والاكراه لتصريفهم عن عقائدهم ومثل هذا التحمل واعطاء الناس الحرية فى العقيدة والعمل على هذا الوجه ما هو بفعل مستحسن فحسب ، بل هو مع ذلك أمر لابد منه لابقاء جو السلام وحسن التفاهم بين عدة جماعات مختلفة العقائد متباينة

المبادىء . أما أن نكون على عقيدة واضحة المعالم والجوانب ، ثم نأتى نصدق غيرنا فى عقائدهم المتضاربة لمجرد كسب رضاهم ، أو نكون متبعين لمنهج خاص ودستور معين للحياة ثم نقول لدعاة المناهج والدساتير الأخرى انكم جميعا على الحق ، فهذا هو النفاق الصريح الذى لا يمكن بأى وجه من الوجوه أن تعبر عنه بالتسامح .

ان التسامح الحقيقى المحمود هو ما قد جاء به الاسلام ودعانا اليه حيث يقول سبحانه وتعالى : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » (١) ويقول مثنيا على أهل الايمان : « والذين لا يشهدون الزور » (٢) : « واذا مروا باللغو مروا كراما » (٣) . ويقول : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون »(٤) : « ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم »(٥): ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » (٦) . ويقول : « لا أكراه فى الدين »(٧) . ويقول: « ويدرءون — أى المؤمنون — بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لانبتغى الجاهلين » (٨) ويقول : « فلذلك فادع . واستقم كما أمرت ، ولاتتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا . واليه المصير » (٩) ويقول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٠) .

---

(١) الأنعام : ١٠٨ .
(٢) الزور هو : الكذب والباطل .
(٣) الفرقان : ٧٢
(٤) بالنسبة للحال .
(٥) بالنسبة للمستقبل .
(٦) الكافرون .
(٧) البقرة : ٢٥٦ .
(٨) القصص : ٥٤ — ٥٥ .
(٩) الشورى : ١٥ .
(١٠) النحل : ١٢٥

نعم ان هذا هو التسامح الذى يمكن أن يتبعه رجل سليم الفطرة يحب الصدق ويناصر الحق • انه يعض بالنواجذ على عقيدته التى رآها صحيحة بصدق واخلاص وايمان • ويصدع بها ويدعو اليها الناس بكل جرأة وحماسة ولكن بدون أن يؤلم غيره ويجرح قلبه أو يشاتمه ويلاعنه أو يتحامل على عقائده أو يحول بينه وبين أداء طقوس دينه ومراسمه أو يكرهه على اعتناق دينه قبل أن يقنعه على صحته • واما أن يقال للحق انه باطل ، أو يقال للباطل انه حق مع علمه بكونه باطلا • فأمر لا يمكن أن يصدر أبدا عن رجل صادق جرىء • وهو من أسوأ أنواع المجاملة ، لا سيما اذا كان الانسان لا يفعله الا ارضاء للناس • وليست مثل هذه المجاملة بأمر شنيع مستقبح من الوجهة الخلقية فحسب، بل هو كذلك محاولة لا طائلة تحتها من الوجهة العملية أيضا ، اذ قلما ينجح الانسان فى غايته التى لأجلها يتذرع بتلك المجاملة ويرضى أن يتردى فى هذه المكانة المنحطة ، وفى ذلك يقول تبارك وتعالى مخاطبا رسوله — صلى الله عليه وسلم : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءاهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير»(١)

لا شك أن التسامح المشبوه قد يتذرع باعلانه لبلوغ الأهداف السياسية ••• لأن رجال السياسة فى الغرب قد فصلوا الأخلاق عن السياسة ، الا ان الذى يدمع العين ويحرق القلب أسفا هو فكرة أولئك (الباحثين العظام) الذين بدون أن يكلفوا العقل بالتأمل والفكر بالنشاط يعلنون مبدأ بحوثهم الدينية الذى يقول : « الأديان كلها على حق » اننا كثيرا ما نسمع هذه الجملة من ألسنة الذين يزعمون أنهم لا يتكلمون بكلمة ولا يسلمون بها مالم يزنوها بميزان العقل ، لا أنه من الحقيقة

(١) البقرة : ١٢٠ .

أن ميزان العقل يأبى أن يقيم لتحقيقهم الطريف هذا أى وزن ، لأن الأديان التى يحكمون بها ويقولون انها على الحق ، نرى بين أصولها ومبادئها من الفرق الهائل والبون الشاسع ما بين السماء والأرض أو الأسود والأبيض • يقول أحدها : بأن الاله واحد • ويقول الثانى : بأن هناك الهين اثنين ، ويقول الثالث: بأن هناك آلهة ثلاثة ويقول الرابع : بأن هناك عدة قوى هى كلها مشتركة فى الألوهية ، ويقول الخامس: بأن ليس هناك شىء يعرف بالاله ، فهل من الممكن أن تكون هذه الأديان الخمسة كلها على الحق بصفة واحدة ؟ يرتفع أحدها بالانسان الى مقام الألوهية ، والثانى ينزل بالله الى منزلة الانسان ، والثالث يجعل الانسان عبدا والله معبوده ، والرابع لا تصور فيه أصلا للعبد ولا للمعبود فهل يجوز بحكم العقل أن تجتمع هذه الأديان كلها ولا يكون بينها من فرق باعتبار صدقها ؟ يجعل أحدها مدار النجاة على العمل وحده ، والثانى على العقيدة وحدها ، والثالث لابد فيه تحقيق النجاة من العقيدة والعمل كليهما ؟ فهل يمكن أن تكون هذه الأديان الثلاثة صحيحة فى آن واحد ؟ يختار أحدها طريق النجاة خارج الدنيا وحياتها والثانى يشق طريق النجاة وسط مشاغل الحياة الدنيا ومصاخبها ، فهل من الممكن أن يكون كلاهما على الحق والصواب بدرجة واحدة؟ ولعمرى أنه اذا كان من الجائز أن يعبر « بالعقل » عما يحكم على مثل هذه الأمور المتضاربة المتنافية بالضدق والصحة والصواب ، فالواجب أن يعبر عما يحكم باستحالة الاجتماع بين الأضداد بكلمة أخرى غير كلمة « العقل » •

نعم ، هناك تصورات مشتركة فى مختلف الديانات ، ولكن من دواعى الأسف أن الذين لا ينظرون من الأشياء الا قشورها ، لا يريدون أصلا أن يعرفوا حقيقة هذه التصورات المشتركة ، وانما يرتبون المقدمات ترتيبا فاسدا ويستنتجون

منها نتائج خاطئة مع أن هذا الاشتراك يرشدنا الى حقيقة مهمة ، وهى أن جميع هذه الأديان متفرعة من أصل واحد، وأن هذه التصورات والتعاليم ليس لها الا مبدأ بعينه، وأن هناك وسيلة للعلم بعينها هى التى قد أعلمت الأنسان فى مختلف الأوطان والأزمان والألسنة بهذه الحقائق المشتركة ، وأن هناك بصيرة بعينها حصلت للناس جميعا على كل ما كان بينهم من بعد المشرقين وفترة المئات والآلاف من السنين ، فهم بهذه البصيرة لم ينتبهوا الا الى نتائج متقاربة من نوع واحد ، ولكن لما تباعدت الأديان عن أصلها تسربت اليها تصورات خارجة ومعتقدات أجنبية وأن هذه الامور البعيدة لم تكن مأخوذة من ذلك المبدأ المشترك وتلك البصيرة المشتركة ، بل وضعها الناس الذين تضاربت طبائعهم وتباينت ميولهم وتنوعت مستويات علمهم وعقلهم . ولأجل ذلك فان الأبنية التى أسسوها على هذه الأسس المشتركة أصبحت مختلفة فيما بينها كل الاختلاف باعتبار صورها وهيئاتها وأشكالها.

فعلى ذلك ان جاز أن يحكم بالحق والصدق على شىء فانما يجوز أن يحكم بها على ذلك الأصل المشترك الذى يوجد فى جميع الأديان ، لا على تلك الصور والهيئات التفصيلية المختلفة التى تقوم عليها هذه الأديان اليوم ، لأن الحق انما هو جنس بسيط — فى اصطلاح المنطق — يستحيل الاختلاف بين أجزائه . فكما أنه من الممكن أن نطلق كلمة « اللون » بكل سهولة على الأبيض والأسود والأخضر والأحمر كذلك ليس من الممكن أن نطلق كلمة « الحق » على مختلف الأحكام مثل أن الله واحد ، وأن الالهين اثنان ، وأن الآلهة متعددة .

أما أن الأديان كلها من أصل واحد وأن هناك حقيقة بعينها أعطيت لمختلف الأمم فى مختلف الأزمان فأمر جاء بيانه بكل صراحة فى غير واحدة من آيات القرآن الحكيم : فقد قيل مثلا : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا »(١) وقيل : « وان من

(١) النحل : ٣٦ .

أمة الا خلا فيها نذير » (١) وقيل : « جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » (٢) وقيل : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان »(٣) أى ما كان مختلف الانبياء والرسل يتلقون رسالة الصدق والحق الا من ينبوع واحد بعينه وانهم جميعا ما كانت لهم الا رسالة واحدة هى : « أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (٤) وأنهم جميعا ما كان يوحى اليهم الا وحى واحد : « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون » (٥) وأنه ما قال واحد منهم لقومه : « ان الذى أعرضه عليكم وأدعوكم اليه هو من نتائج فكرى وعقلى ، بل قد ظلوا جميعا يقولون لاقوامهم : « وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » (٦) وأنه ما دعا واحد منهم قومه الى عبادته وانما دعاهم الى عبادة الله ربه وربهم «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين » (٧) .

فهذا هو التعليم المشترك الذى جاء به الى جميع الأمم قادتها الدينيون ومما يبينه القرآن الحكيم أن الناس ما كانوا جميعا فى أول أمرهم الا أمة واحدة ، أى كانوا على حالة انسانية فطرية خالصة stete of natuxe وكان قد جاءهم من الله العلم بصراطه المستقيم(٨) . ثم ظهر فيهم الاختلاف لا لشىء الا لأن

(١) فاطر : ٢٤ . (٢) آل عمران : ١٨٤ .
(٣) الحديد : ٢٥ (٤) النحل : ٣٦
(٥) الأنبياء : ٢٥ (٦) ابراهيم : ١١ ، ١٢ (٧) آل عمران : ٧٩

(٨) مما يجب ان يلاحظ بصفة خاصة فى هذا المقام ان من بيان القرآن الحكيم على العكس من نظرية النشوء والارتقاء وفلسفة التاريخ الانسانى فى هذا الزمان ان النوع البشرى ما بدأ حياته على وجه الأرض فى ظلمة الجهل ، بل بداها فى ما أعطاه الله من نور العلم ، فقد أكرم سبحانه وتعالى آدم — وهو أول انسان على وجه الأرض — برسالته ، وأعطاه بطريق الالهام من العلم ما كان ضروريا للانسان لقضاء حياته فى الأرض وفقا لمرضاته وقانونه .

بعضا منهم حاولوا الخروج عن حدهم المشروع ، والحصول على مرتبة أعلى من مرتبتهم الفطرية ، واقامة حقوق لأنفسهم أكثر من حقوقهم الفطرية • فهناك شرع الله سبحانه وتعالى يرسل اليهم رسله ليعطوهم العلم الصحيح بالحق ويقيموا بينهم العدالة الاجتماعية soeial tustice وتلك كانت رسالة جميع الانبياء فى الدنيا ، فالذين تلقوها بالقبول ، واتبعوا ما آتاهم أنبياؤهم من العلم اتباعا صحيحا كاملا، واهتدوا بهديهم، هم وحدهم على الحق وليس غيرهم، كائنا من كان ، الا على الباطل سواء أكان ممن أبو اتباع الأنبياء أو ممن حرفوا تعاليمهم وبدلوها حسب أهوائهم وأغراضهم الشخصية• ففى ذلك يقول عز وجل : « وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا »(١) ويقول : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم »(٢) • « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم »(٣) ويقول : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب

(١) يونس : ١٩

(٢) البقرة : ٢١٣ تعنى كلمة «البغى» المستعملة فى هذه الآية هو تعدى الحد المشروع وتجاوزه• . فالذى يقرره القرآن اساسا لكل ما يتورط فيه الناس من الضلال الاعتقادى والظلم الاجتماعى . هو أن بعضهم يحاولون تعدى حدودهم المشروعة الفطرية فمنهم من يتخذ نفسه الها لغيره ويأمرهم بعادته . ومنهم من لا يتجرأ على اتخاذ نفسه الها لغيره . ولكن يظهر بمظهر السادن او الحاجب او الخادم لصنم أو اله وهمى . ثم يفرض على الناس طاعته والاعتراف بسلطانه متوسلا بهؤلاء الالهة ومنهم من ينصب نفسه حاكما دينيا للناس ويزعم انه يحتكر نجاتهم وفلاحهم وهكذا ينجم فى الدنيا فرق البرهمية والبنوية ومنهم من يستغل غناه المالى ورغدة عيشه ليجعل منهما وسيلة لاختيار عدة انواع لسلب الناس اموالهم . وجملة القول ان «البغى» هو الذى يخرج الناس من حالتهم الفطرية ويغرس فيهم بذور الشقاق والخلاف من الوجهتين : الاعتقادية والاجتماعية .

(٣) البقرة : ٢١٣

والميزان »(١) • « ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »(٢) • ويقول: « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى »(٣) •

فهذه هى نظرة القرآن فى التاريخ ••• أو تفسيره المعنوى للتاريخ Moral interfnstation of history الذى يفسر أسباب الخلافات الدينية بكل سهولة • وبهذه النظرة يتبين لنا بكل وضوح أن أنبياء الله ماجاءوا الى مختلف امم الأرض الا ليرجعوا بها الى منهاج الحياة الفطرى الذى كانت قد عدلت عنه بغيا وعدوانا ، ويقيموها على طريق الحق والعدالة الحقيقى •

ثم ان الدعوى التى يعرضها القرآن بعد هذا ، هى أن الاسلام الذى يدعو اليه الناس ما هو الا ذلك الدين الحقيقى الذى مازال جميع الأنبياء السابقين يدعون اليه الأمم المنتشرة فى مختلف بقاع الأرض منذ البداية • وأنه ما جاء محمد — صلى الله عليه وسلم — برسالة جديدة لا عهد بها للبشرية من ذى قبل : « قل ماكنت بدعا من الرسل»(٤) بل قد جاء بنفس تلك الرسالة التى جاء بها كل نبى الى قومه فى كل زمان : «انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده»(٥) • وانه ما بقيت ناحية من نواحى الأرض كجزيرة العرب أو مصر أو ايران أو الهند أو الصين أو اليابان وأوربا وأميركا وافريقية وما اليها محرومة من الاستنارة بنور هذه الرسالة ، حيث جاء اليها رسول الله بكتبه ولا يستبعد أن يكون بوذا، وكرشن ، وراما ، وكونفوشيوس وزرداشت ، ومانى ، وسقراط ، وفيثاغورث وغيرهم من هؤلاء

(١) المراد بالميزان فى هذه الآية ذلك النظام الاجتماعى المتكامل فى الاعتدال والتوازن الذى أرسله الله تعالى الى الناس بواسطة الانبياء فى شريعته الغراء حتى يقيم بينهم العدل .

(٢) الحديد : ٢٥ (٣) طه : ١٢٣ ، ١٢٤ •

(٤) الأحقاف : ٩

(٥) النساء : ١٦٣

الرسل ، الا أن الفرق بين محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهؤلاء الرسل أنه قد ضاعت تعاليمهم الأصلية فى مجاهل اختلاف الناس ولاتزال تعاليمه عليه الصلاة والسلام محفوظة فى صورتها الأصليةدون أن يداخلها شيء من تحريفات الناس.

فالحقيقة أن الاسلام هو الدين الأصلى لسائر البشرية ، وما يوجد فى غيره من الأديان من الحق والصدق انما هو البقية الباقية من أثر ذلك الاسلام الذى جاء الى الجميع ولكنهم أضاعوه فى اختلافاتهم ، أما ما تختلف فيه هذه الأديان مع الاسلام فلا شك فى بطلانه ، ومن الظلم الصريح الحكم عليه بالصحة والصدق . وبدل أن تتظاهر بالتسامع الكاذب يجب علينا أن نقول بكل صراحة لجميع اخواننا فى الانسانية فى مشارق الأرض ومغاربها : «هلموا أيها الاخوة كفوا عما أنتم عليه من العصبية وضيق الصدر ، واقبلوا الحق الصراح والصدق الخالص الذى لا تشوبه شائبة ، ولا تظلوا متشبثين بأهداف الأشياء التى قد اختلط فيها الحق مع الباطل والصدق مع الكذب واليقين مع الشك ، وليس الحق بوقف على الأمة التى تعرف اليوم بالأمة الاسلامية بل هو ميراث تشترك فيه البشرية بأجمعها . وقد كان الله سبحانه وتعالى وزعه على جميع الأقطار والأمم ، فان كان غيرنا قد أضاعوه ودسوا عليه سم (بضم السين) عبادة المخلوق والظلم والعدوان والتقاليد الزائفة والامتيازات الجائرة الغاشمة ، فانما كان ذلك من سوء حظنا وحظكم معا ، فما الذى يدعوكم اذن الى أن تبقوا متشبثين بسوء الحظ هذا لا لسبب الا لأن آباءكم كانوا قد تورطوا فى هذه الغلطة . وانه اذا كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد نال هذا الميراث ثم بلغه كما هو ، وسلم الميراث من أن يختلط به سم عبادة المخلوق والعادات القائمة على الظلم والعدوان والامتيازات الجائرة ، فذلك من عين حسن حظنا وحظكم وحظ النوع البشرى كله ، فاشكروا الله على هذه النعمة ولا تترددوا فى الاستمتاع بها بحجة انها واصلة

اليكم بواسطة رجل من العرب ، واعلموا أن الحق من نعم الله رب العالمين كالهواء والماء والنور ، فاذا كنتم لاتأبون الاستمتاع بالهواء اذا كان آتيا اليكم من جهة الشرق ولا تترددون فى شرب الماء واستساغته بحجة أن عينه قد انبثقت فى الأرض الفلانية ولا تأبوا الاستمتاع بالنور لأنه ينبثق من مصباح فلان ، فما بالكم تترددون فى قبول نعمة الحق الخالص النقى التى قد وصلت اليكم بواسطة محمد العربى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحجة أن الذى قد جاء بها ليس مولده فى وطنكم أنتم ؟

ابو الأعلى المودودى

ابن القيم يصف الداعية :

لا تملكه اشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولى عليه رسم ، حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار يدين بدين الأمر انى توجهت ركائبه ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يانس به كل محق ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها ، وكلها منفعة حتى شوكها . وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله والغضب اذا انتهكت محارم الله . فهو لله ، وبالله ، ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ، بل اذا كان مع الله عزل الخلائق عن العين وتخلى عنهم ، واذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها ، فواها له . ما اغربه بين الناس . وما اشد وحشته منهم ، وما أعظم انسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه اليه .

مدارج السالكين ــ ابن القيم ..